

Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

صورة المرأة العربية في أعمال الرحالة الأوروبيين(*)

د/ أمل بنت محمد التميمي
عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية وآدابها،
ووكيلة قسم الإعلام بكلية الآداب
بجامعة الملك سعود بالرياض
aaltamimi@ksu.edu.sa

تاريخ قبوله للنشر 26/6/2021

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(*) تاريخ تسليم البحث 29/5/2021

(*) موقع المجلة:

صورة المرأة العربية في أعمال الرحالة الأوربيين

د/ أمل بنت محمد التميمي

عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية وآدابها،
ووكيلة قسم الإعلام بكلية الآداب-جامعة الملك سعود بالرياض

الملخص

سعت هذه الدراسة إلى التعرف على التصور الغربي عن المرأة العربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من خلال مصادر تاريخية مثل اللوحات الفنية أو كتب الرحالة الغرب، وما بين الفن والكتابة كيف صور الغرب المرأة العربية؟ وقد اعتمدت الدراسة على عينة من بعض اللوحات الفنية التي موضوعها المرأة العربية، وكتب بعض الرحالة الغرب ممن ذكروا الأميرة العربية غالية البقمية في كتبهم مثل الرحالة السويسري يوهان لودفيغ بوركهاردت JOHANN LUDWIG BURCKHARDT، والمؤرخ الفرنسي إدوارد دريو EDWARD DREW. وكانت أهم النتائج على النحو الآتي:

- اكتسبت المرأة العربية اهتماما غربيا مع عصر الرحالة الغرب الذين جاءوا لدراسة الشرق.
- تعددت صورة المرأة العربية في التصور الغربي باختلاف المصدر سواء كان فنيا أو تشكيلا مكتوبا.
- اختلفت النتائج عن مكانة المرأة العربية من وجهة نظر الغرب، بحسب وضعها الاجتماعي والسياسي والجغرافي.
- كشفت الدراسة عن بعض أسرار الاهتمام الغربي بالحياة العربية، وبخاصة بالمرأة بوصفها موضوع إلهام للفنان الغربي، ومصدر للشهرة والثراء.
- كشفت الدراسة عن بطولة المرأة العربية وبسالتها في كتب مذكرات الرحالة الغرب، والتي حكى عن مصدر نفوذها وقوتها كما صوروا بطولة غالية البقمي بوصفهم شاهد عيان على الحروب العسكرية أثناء تجولهم داخل الجزيرة العربية.
- احتل موضوع بطولة المرأة العربية مكانا لعقد المقارنة بين التشابه التاريخي بين بطولة غالية البقمي في عصر السعودية الأولى والمرأة الخارقة في الثقافة الغربية جان دارك الفرنسية.

The image of Arab women in the works of European travelers

Dr. Amal Bint Muhammad Al-Tamimi

Associate Professor of Biography and Digital Literature - Department of Arabic Language and Literature - College of Arts - King Saud University - Kingdom of Saudi Arabia.

Abstract

This study aimed to recognize the western perception of Arab women in the eighteenth and nineteenth centuries from historical resources such as paintings and books of western travelers and to know how the west depicted the Arab woman between art and writing. The study depended on some paintings about Arab women and some books of western travelers who mentioned the Arab Princess Ghalia AlBogomiah in their books like the Swiss traveler Johan Ludwig Burckhardt and the French Historian Edward Drew. Most Important results were as follows:

- The Arab woman gained western attention at the age of western travelers who came to study the east.
- image of the Arab woman varied in the western perception according to source whether it was artistic or written.
- Results about position of the Arab women from the point of view of the west differed according to her social political and geographical position.
- The study revealed some of the secrets about western attention to Arab life. One of the most important issues addressed by the team is woman as an inspiration for the western artist and a source of imagination, fame and wealth.
- The study revealed that the Arab woman was a hero in auto biographies of western travelers. They spoke about source of her power and described Ghalia AlBogomi as they witnessed wars during their wandering in the Arabian Peninsula.
- Subject of the Arabian woman took a good position to compare historical similarity between Ghalia AlBogomi in the age of the first Saudi state and the super woman in the western culture, the French woman, Jeanne d'Arc.

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة التصور الغربي عن المرأة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من خلال صورة غالبية البقعي في بعض كتب الغرب، والحقيقة إن موضوع غالبية منتشر وشائع في العديد من الفقرات البرمجية والمقالات الصحفية والدراسات العربية التي نقلت عن الغرب بعض المعلومات التاريخية، لكن هذه الدراسة تميزت بأنها ركزت على صورة المرأة في الغرب واختارت أن تكون غالبية أنموذجاً للدراسة.

فلقد ألفت العديد من الكتب والدراسات الغربية التي تطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة^(١)، والدفاع عن حقوق المرأة التي لم تتمتع بها لقرون عديدة منذ الحضارة الإغريقية والرومانية القديمة وكانت تتعامل معها على أنها كائن تابع لا حقوق مستقلة له، وعليها الطاعة التامة، وتعاملت الكنيسة مع المرأة على أنها كائن منبوذ ومخلوق نجس في العصور الوسطى مروراً بعصر النهضة وعصر العقل وعصر الثورة الصناعية إلى أن فُتح مجال العمل أمام النساء بعد عصر الثورة الفرنسية بوصفهن من الطبقات الدنيا وكأيدٍ عاملة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية. ومن الطبيعي أمام هذه الصورة القاتمة في الغرب للمرأة أن يكون وضع المرأة العربية الاجتماعي والسياسي محل اهتمام من الغرب. وخصوصاً حينما يقابل عصور الظلام في الغرب بالحضارة الإسلامية التي تمنح المرأة حقها التي كفلتها العدالة الربانية.

إشكالية البحث

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الآتي: كيف صوّر الغرب المرأة العربية؟ وكيف انعكست هذه الصور في الصورة الذهنية النمطية العربية؟ وهل اهتم الغرب خلال تاريخ الحركة النسوية الأوروبية مقارنة المرأة العربية بالمرأة الغربية أم جاء اهتمامهم بالمرأة العربية في كتب الرحلة والتاريخ وامتد إلى الأدب والفن عارضاً؟ وقد تم تحديد عينة للدراسة والتحليل كي تعين على استخلاص النتائج بشكل دقيق، وهي صورة غالبية البقمية في كتب الغرب.

(١) انظر: سلسلة كتب المرأة في الفلسفة، منها، إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، سلسلة كتب المرأة في الفلسفة (١) (بيروت: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م). إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، سلسلة كتب المرأة في الفلسفة (٣). سوزان مولر أوكين، النساء في الفكر السياسي الغربي، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة كتب المرأة في الفلسفة (٧). إمام عبد الفتاح إمام، روسو والمرأة، سلسلة كتب المرأة في الفلسفة (٨). إمام عبد الفتاح إمام، كانط والمرأة، سلسلة كتب المرأة في الفلسفة (٩).

قصة غالية البقيمة جزء لا يتجزأ من قضايا اهتمام الغرب بقضايا الأمة العربية حينها، الهادفة إلى قراءة كافة القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية عن العرب؛ لذلك، ماذا لفت أنظار الغرب عن هذه المرأة العربية؟

لعلنا للإجابة عن التساؤل السابق أعلاه، يمكن أن نجمل محاور البحث في النقاط الآتية:

- المحور الأول: التصور الغربي عن المرأة العربية.

- المحور الثاني: تحديد موضوعات المرأة العربية وقضاياها في الخطاب الغربي.

- المحور الثالث: رصد دوافع الآخر من خلال وجهة نظر متخصصة.

أيًا كان اهتمام الدراسات العربية بالمرأة مؤخرًا ومنهن غالبية البقمية، من الواضح أن هناك أسبابًا للغرب في اهتمامهم بغالبية البقمية قبل الدراسات العربية، من هي غالبية البقمية من وجهة نظر الغرب؟ أو كما صوّرها الغرب؟

والمفارقة أنه يندر أن نجد دراسة أكاديمية عربية متخصصة حول بطولة المرأة العربية أو صورة المرأة العربية في فترة الثامن عشر والقرن التاسع عشر من وجهة نظر عربية، في حين نجد بعض الاهتمام الغربي بموضوع التشابه التاريخي بين غالبية البقمية وجان دارك، أو عن انتصار غالبية وصورة المرأة في الفترة التي عاشت فيها^(٢).

ونحن من هذا المنظور، نطرح قضية لم يُلتفت إليها في الدراسات النقدية العربية وهي قضية التصور الغربي عن المرأة العربية في فترة الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري وهي فترة ميلاد غالبية البقمية ودورها في تحقيق انتصار كبير في إحدى المعارك المهمة في تاريخ السعودية الأولى.

هذا التصور الذي ظهر في مصادر وكتب أجنبية تناولت الشرق الأوسط بالاهتمام بعضها مازال بلغته وبعضها ترجم إلى العربية، ومنها، كتاب **التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط البريطانيون والفرنسيون والعرب**، لديريك هوبود، ترجمة، تحقيق: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، (مشروع كلمة للترجمة - دائرة الثقافة والسياحة، ٢٠١٩/١٢/٣١ م). وثلاث مدن مشرقية: سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التآلق والهاوية، لفيليب مانسيل، ترجمة، مصطفى محمد قاسم، عالم

(٢) هناك بعض الإشارات الصحفية ومقاطع الفيديو المرئية التي تشير إلى غالبية البقمية منها **صحيفة الرياض** حيث ورد ما مفاده: "غزت المنطقة آنذاك بكامل عدتها وعتادها، حتى قال عنهما أعداؤها إنها ساحرة ودجالة ومشعوذة، وهذا ما تناقله كثير من المؤرخين الفرنسيين الذين أرخوا لحروب الباشا في الجزيرة العربية، بينما أطلق عليها في بلادها لقب (الأميرة) لعلو مقامها ومكانتها الاجتماعية". **صحيفة الرياض**، تحقيقات وتقارير، إعداد التقرير، منصور العساف، الجمعة ١٠ محرم ١٤٣٧ هـ (أم القرى) - ٢٣ أكتوبر ٢٠١٥ م - العدد ١٧٢٨٧. وكذلك محمد عبد الرزاق القشعري، "غالبية البقمية البطلة الأسطورة ٢"، الجزيرة، العدد ١٦٣٣٣، السبت ٢٢ رمضان ١٤٣٨ هـ - ١٧-٦-٢٠١٧ م.

المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (العدد ٤٥٤، ٢٠١٧م)، إلخ، ولكن الجدير بالذكر أن موضوع المرأة العربية مطروق من قبل المستشرقين والمستشرقات والرسامين الغربيين في الوجه السلبي غالباً، ونجد في الساحة الاستشراقية كتابات منصفة وموضوعية ومعجبة بهذا الوضع، وأخرى نقلت من وجهة نظرها، ومن تلك الكتابات كتابات المستشرقتين الألمانييتين "زيجريد هونكه" بالألمانية: Sigrid Hunke و"أناماري شيميل" بالألمانية: Annemarie Schimmel، والمستشركة "كاترين آرمسترونج" Karen Armstrong، وهي نماذج لإنصاف وضع المرأة المسلمة الاجتماعي ومكانتها، والعربية منها، ولكننا في هذه الدراسة مركز اهتمامنا على الفترة التاريخية التي ظهرت فيها غالبية البقمي، لنوضح موقف الاستشراق من امرأة عربية في الجزيرة العربية.

ومن خلال الاستقراء لاحظت أن تصور الرحالة الغرب عن غالبية البقمي يختلف نوعاً ما عن الصورة النمطية للمرأة العربية، وهو الذي أثار اهتمامي وخصوصاً ما قرأته في كتب الرحالة عن غالبية البقمي وما نقل عنهم في الدراسات العربية مؤخراً أو في المقالات.

كيف كان ينظر الغرب إلى المرأة العربية؟ فحينما استدعى ذكر غالبية البقمي في كتب الغرب نظروا إلى المرأة الغربية وقارنوا بينها وبين جان دارك بالفرنسية: Jeanne d'Arc في الثقافة الغربية بوصفها إحدى أكثر الشخصيات شعبيةً.

لذلك من الأسباب الداعية لهذه الدراسة مناقشة أسباب اهتمام الغرب بالمرأة العربية، وما التصور الذهني عنها، وهل أثر تصوّر الغرب عن المرأة على الفكر العربي؟

بناءً على التقديم السابق، أمامنا حقيقة تاريخية وتتمحور إشكالية الدراسة التي نطرحها في تسليط الضوء على تجربة امرأة عربية عرفت بالقوة والبسالة في فترة تاريخية لم تكن حينها تثار قضايا المرأة والتمكين السائدة في فترة القرن العشرين، أو في فترة الألفية الثالثة. ونطرح تساؤلاً مهماً، لماذا اهتم الغرب في تدوين حياة غالبية البقمي؟ ونطرح السؤال بطريقة أخرى لماذا اهتم الغرب بالمرأة العربية بشكل عام؟ ليس من وجهة نظر معاصرة وإنما تاريخية، فارتفع سهم غالبية في الفترة المعاصرة في الأخبار العربية بينما كانت معروفة في الكتب الغربية.

ومصادر الدراسة كتب الرحالة⁽³⁾ وبعض اللوحات الفنية، ولعلنا حينما نقدم قراءة على بعض اللوحات الفنية الغربية والتي كان موضوعها المرأة العربية في الفترة التاريخية المتزامنة مع عصر

(3) Burckhardt, John Lewis' Travels in Arabia: Comprehending an Account of those Territories in Hedjaz which the Mohammedans Regard as Sacred. Burckhardt, John Lewis, *Travels in Nubia* (London: John Murray, 1822).

غالبية البقمي، والوقوف على إحيائها في رسم صورة عن المرأة العربية في فن الغرب، ويساعدنا في هذا الاستقراء المنهج الاستقرائي للنصوص الاستشراقية والقراءة التاريخية لصورة المرأة العربية فيها ومدى انعكاسها على الفكر العربي؛ وهذا لسببين: أولهما، أدب الرحلة من النصوص التأسيسية لمعرفة صورة الأنا من خلال الآخر. وثانيهما، التخفيف من هاجس التواصل الذي رسمه خطاب الاستعمار وأدوات المستشرقين في تجميع المعلومات بغرض التفكيك. لنستنتج هل كانت النصوص الغربية عن المرأة العربية منصفة أم لديها أجندة وأهداف أخرى؟

المحور الأول: التصور الغربي عن المرأة العربية.

لقد اكتسبت المرأة العربية اهتماماً غربياً مع ظهور حركة الاستشراق⁽⁴⁾ Orientalism وعصر الاستعمار؛ أي منذ عصر الرحالة الغرب الذين جاءوا لدراسة الشرق وكانوا أفراداً متفاوتين، فمنهم من جاء مبتكراً باسم الدين حاجاً، أو بلباس عسكري، أو بصفتهم أطباء أو معلمين أو في رحلات استكشافية جغرافية.

وفي ظل الاهتمام الأوروبي بالمرأة العربية منذ بدايات عصر الاستعمار الغربي نلاحظ غلبة الدراسات العربية عن بعض النساء العربيات اللاتي كان لهن شأن في تاريخ المنطقة العربية باستثناء بعض الدراسات العربية مؤخرًا في مصر والعراق مثل الدراسات التي تناولت التصدي للحملات العسكرية العثمانية والتي أشارت إلى غالبية البقمي بوصفها قائدة سعودية ظنّها العثمانيون ساحرة، وإحدى النساء العربيات اللاتي اشتهر عنها الشجاعة والكرم والذكاء وبُعد النظر وأنها صاحبة كلمة، ثم على وجه الخصوص اهتمت دارة الملك عبدالعزيز بالسعودية على تخصيص نشر دراسة علمية ثرية عن غالبية البقمي وفي ظل مشروع الملخصات قدم ملخص مرئي مسموع عنها، وأدخلت سيرتها ضمن مشروع التغيير في المناهج الدراسية⁽⁵⁾ الذي أسهم في التعريف بها وبدورها العسكري.

- Edward Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians (London: East-West Publications, 1989).

(4) الاستشراق هو دراسة كافة البنى الثقافية للشرق من وجهة نظر غربية. وتستخدم كلمة الاستشراق أيضاً لتدليل تقليد أو تصوير جانب من الحضارات الشرقية لدى الرواة والفنانين في الغرب. المعنى الأخير هو معنى مهمل ونادر استخدام، والاستخدام الأغلب هو دراسة الشرق في العصر الاستعماري ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر. لذلك صارت كلمة الاستشراق تدل على المفهوم السلبي وتنطوي على التفسير المضرة والقيمة للحضارات الشرقية والناس الشرقيين. وجهة النظر هذه مبيّنة في كتاب إدوارد سعيد الاستشراق (المنشور سنة ١٩٧٨)، نقله إلى العربية كمال أبو ديب، الطبعة الأولى، (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١م)، ٣٦٨ صفحة.

(5) دلال بنت مخلد الحربي، غالبية البقمية: حياتها ودورها في مقاومة حملة محمد علي باشا على تربة، (الرياض: إصدارات دارة الملك عبد العزيز، رقم الإصدار ٢٩٩)، ٢٠١٣م، وأبدعت الدارة في مشروع الخلاصات في تقديم ملخص الكتاب مسموعاً مرئياً.

وقدمت قناة العربية تقريراً مرئياً عن (حياة غالبية البقمي) قبل ثلاث سنوات؛ أي ما يقارب عام ٢٠١٨م، وقدمت قناة mbc تقريراً عن (معركة في الحجاز قبل ٢١٤ عام.. بين الدولة السعودية الأولى وجيش الدولة العثمانية)



من هي غالية البقمي كما صوّرها الغرب؟ وكما نقل عنهم العرب؟ على اعتبار أن كتب الرحالة الغرب والمؤرخين من أهم المصادر التاريخية لفترة القرن الثامن عشر والتاسع عشر وكانت سابقة على المؤلفات العربية وهي صاحبة المبادرة. وما هدف الدراسات الغربية من الاهتمام بحياة المرأة العربية، ومن هذه الصور توثيق حياة الأميرة غالية أو كما يطلق عليها غالية الوهابية، نظرا لتقارب البقوم من تبني مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهي تسمية شاعت بين المستشرقين والمفكرين الغربيين^(٦)، وللأسف ارتبط مصطلح (الوهابية) في زماننا هذا بالإرهاب. قال محمود فهمي المهندس في كتابه "البحر الزاخر" واصفاً بطولة امرأة عربية في حرب "الوهابيين" سنة ١٨١٢م

وأشير إلى بطولة غالية البقمي (٢٠١٩م). في تاريخ (١٤ نوفمبر ٢٠١٦م) على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=0-aggc1Z0tI>

وأشير إليها على قناة روتانا خليجية بعنوان "قصة "غالية البقمية" أسطورة المقاومة أمام العثمانيين في ضрма بتاريخ (٢٠١٩/٣/٢٩م) ضمن برنامج (في الصورة) تقديم عبد الله المديفر، ضيف الحلقة الدكتور سلطان الأصة، تحت عنوان (قراءة في التاريخ العثماني).

(٦) غالية الوهابية (ت ١٨١٤م) من بادية ما بين الحجاز ونجد. أرملة رجل من أغنياء "البقوم" قرب الطائف ومن سكان "تربة" وكان أهل تربة أسبق أهل الحجاز إلى دعوة الوهابيين. اشتهرت في حروب نجد ضد الترك والهاشميين، وكانت لها بطولة رائعة. أرادت أن تكون مقاومة تربة أشد مقاومة عرفها الترك في تلك المنطقة. أنفقت من ثروتها الطائلة على الحرب، وجندت بمالها كثيرين من أهل العشائر. هزمت الجيش المصري بقيادة طوسون (١٨١٣م) المصدر: الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥م.

(١٢٢٧هـ) ما خلاصته: "لم يحصل من قبائل العرب القاطنين بقرب مكة مقاومة أشد مما أجراه عرب البقوم في تربة، وكان قد لجأ إليها معظم عساكر الشريف غالب، وقائد العربان في ذلك الوقت امرأة أرملة، اسمها غالية كان زوجها أشهر رجال هذه الجهة وكانت هي على غاية من الغنى، ففرقت جميع أموالها على فقراء العشائر الذين يرغبون في محاربة الترك واعتقد المصريون أنها ساحرة! وأن لها قدرة على إخفاء رؤساء الوهابيين عن أعين المصريين. ففي أوائل نوفمبر ١٨١٣م (ذي الحجة ١٢٢٨) سافر طوسون من الطائف ومعه ٢٠٠٠ نفس للغارة على تربة وأمر عساكره بالهجوم، وكان العرب محافظين على أسوار المدينة بشجاعة، ومستبشرين بوجود غالية معهم، وهي المقدمة عليهم، فصدوا طوسون وعساكره، واضطر هؤلاء إلى ترك خيامهم وسلاحهم، وقتل منهم في ارتدادهم نحو سبعمئة نفس، ومات كثيرون جوعاً وعطشاً، وكانت النتيجة المنتظرة لهذا الفشل أن يموت جميع العساكر لولا أن توماس كيث مع شزيمة من الخيالة استردوا مدفعاً وحفظوا به خط الرجعة. وتعطلت بعد ذلك الإجراءات الحربية ثمانية عشر شهراً"^(٧). وقال مؤرخ مصر "الجبرتي" في حوادث صفر ١٢٢٩هـ: "وفي ثانيه وصل مصطفى بك أمير ركب الحجاج إلى مصر، وسبب حضوره أنه ذهب بعساكره وعساكر الشريف من الطائف إلى ناحية تربة، والمتأمر عليها امرأة، فحاربته، وانهزم منها شرّ هزيمة، فحنق عليه الباشا وأمره بالذهاب إلى مصر مع المحمل" وقال أيضاً في حوادث جمادى الأولى ١٢٢٩هـ: "وفي رابعه وصلت هجانة من ناحية الحجاز، وأخبر المخبرون أن طوسون باشا وعابدين بيك ركبا بعساكرهما على ناحية تربة التي بها المرأة التي يقال لها غالية، فوقعت بينهم حروب، ثمانية أيام، ثم رجعوا منهزمين ولم يظفروا بطائل"^(٨).

وكتب عنها الأوربيون من مثل الرحالة السويسري يوهان لودفيغ بروكهاردت^(٩) JOHANN LUDWIG BURCKHARDT الذي زار المنطقة في تلك الفترة، وقال إن عرب البقوم من

(٧) نقلاً عن خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، الأعلام، طه، ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ج ٥، ص ١١٥-١١٦.

(٨) المصدر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، الأعلام، طه، ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ج ٥، ص ١١٦.

(٩) بروكهاردت (١١٩٩-١٢٣٢هـ = ١٧٨٤-١٨١٧م) يوهان لودفيغ بروكهاردت ويسميه الإنجليز جون لويس، مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان، ودرس في ليبسيك وغوتنجن في ألمانيا، وزار إنجلترا سنة ١٨٠٦م، ودرس في لندن وكمبردج. وتجنس بالجنسية الإنجليزية، ورحل إلى حلب بسوريا، قتلتم العربية وقرأ القرآن وتفقّه بالدين الإسلامي. وزار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمال السودان، ثم مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام وتسمى بإبراهيم بن عبد الله، فأدى مناسك الحج وقضى بمكة ثلاثة شهور، ثم عاد إلى القاهرة (سنة ١٨١٥م) وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في يونيو (١٨١٦م) وكان يعتزم السفر إلى فزان، لبيد منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة، موصياً بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كمبردج. وكتابهاتها كلها تدور حول رحلاته. كرحلة للشام والأراضي المقدسة، و"رحلة لجزيرة العرب" و"معلومات عن البدو والوهابيين" و"رحلة للجزيرة مع مذكرات عن حياة البدو". وقد تولت الجمعية الإفريقية بإنجلترا نشرها. وله بالعربية "أمثال عربية" مع ترجمتها إلى الإنجليزية. المصدر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٩٨٠م.

سكان تربة هم بدو فلاحون، وكان الشيخ خرسان رئيساً اسمياً عليهم، فيما كانت زعيمته الحقيقية غالية، أرملة أحد كبار تربة وكانت هذه المرأة لعقلها وحكمتها وكمال معرفتها بشؤون العشائر، مسموعة كلمتها، مطلوبة مشورتها، وكانت تحكم قبيلة البقوم، ثم قال عنها إنها: "لم تكتف بالدفاع عن بلدها عندما هاجمها الأتراك في عام (١٢٢٨هـ) للهجرة بقيادة طوسون وهم في طريقهم للدرعية، إنما خرجت على رأس فريق من رجالها، بعد أن خطبت فيهم واستشارت نخوتهم، فقاتلت العساكر قتالاً شديداً حتى انهزموا هزيمة منكراً وهربوا لا يلوي أحد على أحد تاركين خيامهم وأمتعتهم وأكثر مدافعهم"^(١٠) مضيفاً إنها "كانت لديها ثروة تفوق ما لدى أية أسرة عربية في منطقتها، فأخذت توزع نقوداً ومؤناً على فقراء قبيلتها الذين كانوا على استعداد لقتال الأتراك، وكانت مائدتها دائماً معدة لكل المخلصين الذين يعقد زعمائهم مجالسهم في بيتها"^(١١). أما المؤرخ الفرنسي إدوارد دريو^(١٢) EDWARD DREW فقد قال في السياق نفسه: "إن هزيمة المصريين في تربة أمام غالية كانت ضربة قاصمة لسمعة محمد علي باشا وابنه طوسون وقواتهم"^(١٣). كما قال عنها الغرب هي النسخة الفرنسية من جاك دارك^(١٤). التي حوكت بتهمة "العصيان والزندقة"، ثم أعدم حرقاً بتهمة الهرطقة عندما كانت تبلغ ١٩ عاماً^(١٥).

(١٠) نقلاً عن: عبد الله المدني، "الأميرة غالية.... «جان دارك» السعودية"، صحيفة الأيام البحرينية، كتاب الأيام، العدد ٩٩٥٩ الجمعة ١٥ يوليو ٢٠١٦ الموافق ١٠ شوال ١٤٣٧هـ. على الرابط:

<https://www.alayam.com/Article/courts-article/403549/Index.html>

(١١) إعداد منصور العساف، "غالية البقي: المرأة الحديدية، سجلت موقفاً بطولياً في مقاومة جيوش «الباشا» في «تربة» وحركت همم قومها في المعركة حتى تحقق النصر"، صحيفة الرياض، تحقيقات وتقارير، الجمعة ١٠ محرم ١٤٢٧هـ (أم القرى) - ٢٣ أكتوبر ٢٠١٥م - العدد ١٧٢٨٧.

(١٢) صدرت النسخة الإلكترونية من كتاب إدوارد دريو "محمد علي ونابليون (١٨٠٧ - ١٨١٤) مراسلات قناصل فرنسا في مصر" الذي ترجمه عن الفرنسية د. ناصر إبراهيم وراجعته وقام بتقديمه د. رءوف عباس. يضم هذا الكتاب مجموعة منتقاة من تقارير قناصل فرنسا في القاهرة والإسكندرية في الفترة (١٨٠٧ - ١٨١٤) وهو عصر صعود نابليون وتربعه على عرش الإمبراطورية، الذي كان حافلاً بالحروب والصراعات على الساحة الأوروبية، والمنافسات الفرنسية البريطانية في حوض البحر المتوسط. من هنا جاء العنوان الذي اختار صاحب الكتاب موحياً بالربط بين صعود نابليون وصعود محمد علي.

(١٣) محمد عبد الرزاق القشعري، "غالية البقيمة البطلة الأسطورة ٢"، الجزيرة، العدد ١٦٣٣٣، السبت ٢٢ رمضان ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧/٦/١٧م.

(١٤) من هي جان دارك في الثقافة الغربية؟ جان دارك بالفرنسية: Jeanne d'Arc الملقبة بعذراء أورليان بالفرنسية: La Pucelle d'Orléans، ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام ١٤١٢، وتوفيت في ٣٠ مايو ١٤٣١، وتعد بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ادّعت جان دارك الإلهام الإلهي، وقادت الجيش الفرنسي إلى عدة انتصارات مهمة خلال حرب المئة عام، ممهدةً بذلك الطريق لتتويج شارل السابع ملكاً على البلاد. قبض عليها بعد ذلك وأُرسلت إلى الإنجليز مقابل المال، وحوكت بتهمة "العصيان والزندقة"، ثم أعدم حرقاً بتهمة الهرطقة عندما كانت تبلغ ١٩ عاماً.

(١٥) أذن البابا كاليستوس الثالث بعد خمس وعشرين سنة من إعدامها بإعادة النظر في محاكمتها من قبل لجنة مختصة، التي قضت ببراءتها من التهم التي وُجّهت إليها وأعلنتها بناءً على ذلك شهيدة. تم تطويب جان دارك عام ١٩٠٩، أعقب ذلك إعلانها قديسة عام ١٩٢٠. جان دارك هي إحدى القديسين الشفعاء لفرنسا إلى جانب القديس مارتن، ولويس التاسع، وغيرهم. ادّعت جان دارك بأنها رأت الله في رؤيا يأمرها بدعم شارل السابع واستعادة فرنسا من

كتلك القصص التي تتناول حياة غالبية البقيمي وأسباب انتصارها ودورها، يقول جون لويس بوركهارت "أمر علي باشا جنوده بمهاجمة البلدة، ولكن العرب دافعوا عن أسوارهم ببسالة تجمعهم جهود غالبية..."^(١٦) ويقول المستشرق السويسري الرحالة أيضاً الذي كان موجوداً أثناء حملة طوسون العسكرية في منطقة الحجاز، وشاهد كثيراً من هذه الحروب ورواها كشاهد عيان: "كان يتزعم قبيلة البقوم الذي يعمل بعضهم في الرعي والبعض الآخر في الزراعة امرأة تسمى غالبية". ويواصل: "كانت مائدتها دائماً معدة لكل الوهابيين المخلصين"^(١٧).

في ظني أهم سؤال يمكن طرحه هاهنا هو: هل تختلف نظرة الغرب إلى المرأة العربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عن القرن العشرين؟ أو الوقت الراهن؟ وأيضاً هل اختلفت صورة غالبية المرأة العربية في شبه الجزيرة عن صورة المرأة العربية في مكان آخر؟ لقد اختلفت روايات الغرب في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في رسم صورة المرأة العربية، وكذلك تعددت ما بين كتاب وفنانون، فهناك بعض الفنانين الغرب من جسد المرأة العربية في رسوماته من

السيطرة الإنجليزية. أنشأ الكتاب والسينمائيون والملحنون العديد من الأعمال عن جان دارك منذ وفاتها باعتبارها إحدى أكثر الشخصيات شعبية، وما زالت تظهر في السينما والمسرح، والتلفزيون، وألعاب الفيديو إلى يومنا هذا. (١٦) في عام ١٨٠٨ ذهب جون لويس بوركهارت إلى "كامبردج" لدراسة اللغة العربية، وفي الوقت نفسه وفر لحيته ووطن نفسه على النوم على الأرض والعيش على الخضروات والمياه، وفي العام التالي انتقل للإقامة في حلب حيث انغمس في دراسة مكثفة للغة العربية، حتى أنه أظهر براعة كبيرة وقام بترجمة "روبنسون كروزو" إلى العربية. ولما شعر أنه أتم استعداداته لبدا رحلته توجه إلى القاهرة في فبراير ١٨١٢. وقد وصفه مغامر إنجليزي التقاه آنذاك قال: "كان يرتدي أكثر الأزياء شعبية كفلاح أو تاجر عربي صغير، وذلك بجلباب قطني أزرق تحته قميص خشن وسروال أبيض فضفاض، وعمامة شعبية من الشاش.. وكانت له لحية سوداء كثة. ولم يكن يرتدي جورباً وإنما اكتفى بالنعال المحلية. فبدأ تماماً كواحد من عرب الشمال". وكان يحمل معه ٥٠ دولاراً فضياً ودفترين صغيرين وبنديقة ومسدس، وخطابات من محمد علي باشا مصر تقدمه بوصفه سوريا اسمه الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامي، وتوغل بوركهارت في نهر النيل جنوباً إلى أبعد مما ذهب إليه أي مستكشف سابق، وكان أول غربي يشاهد معابد "أبو سمبل" العظيمة وهناك عثر على قافلة ولكنها بدلاً من الذهاب إلى الغرب كانت تضم حجاجاً متجهين شرقاً إلى مكة فقرر الالتحاق بها ليضيف لقب "الحاج" إلى منجزاته الأخرى. واشترى حماراً لحمل أمتعته، كما اشترى عبداً اضطر فيما بعد إلى بيعه، وهو ما كان محل أسفه الشديد. ووصل إلى الحجاز في يوليو ١٨٤١ حيث مكث هناك حتى أبريل ١٨١٦. وفي هذه الأثناء كان محمد علي باشا يضطلع بحماته في الجزيرة العربية ضد الوهابيين وذلك باسم السلطان العثماني. وقد جدد الباشا حمايته لبوركهارت وأرسل إليه بالمال، وسمح له بالإقامة في مكة مما كان مبعث سعادته، فكتب وصفاً لها ٣٥٠ صفحة متضمناً الكثير من الرسومات. وقد أدى شعائر الحج بدقة تامة، حتى لم يكن محل أي انتقاد من الآخرين لأدائه الحج أو إقامته في مكة. ولقد جمع بوركهارت مادته من طريقين فقد أنفق الوقت الكثير جداً في الحديث مع البدو في مقاهي حلب ودمشق ومكة، كما قام برحلات طويلة برفقتهم إلى مناطق بعيدة في "بالمير" والفرات. وقد اكتسب مهارة كبيرة في تدوين مذكراته دون أن يلحظ أحد حتى وهو على ظهر الإبل كما كان مراقباً دقيق الملاحظة ويتمتع بالخلفية المعرفية والفطنة الفلسفية الهائلة القادرة على استيعاب ما يترأى له ثم نسجه في سياق كلي متماسك، وقد كان عمله -الذي حظي بنجاح سريع- بمثابة أول وصف سوسولوجي لحياة قبائل البدو الرعاة التي ظلت على حالها تقريباً حتى مجيء السيارات. انظر كتاب ملاحظات عن البدو والوهابيين.

وقد قدم وصفاً دقيقاً للحجاز في كتابه

(17) Travels in Arabia: Comprehending an Account of those Territories in Hedjaz which the Mohammedans Regard as Sacred. Burckhardt, John Lewis, *Travels in Nubia* (London: John Murray, 1822).

وجهة نظره^(١٨) كما فعل الفنان ديلاكروا^(١٩) حال وصوله إلى طنجة^(٢٠)، حيث بدأ برسم تخطيطات عنها لكي تصبح مادة للوحاته الكبيرة المقبلة التي عرضها في متحف اللوفر الشهير، مثل لوحة **نساء الجزائر في الحرملك** في القرن التاسع عشر^(٢١).

وبالرجوع إلى أرشيف لوحة نساء الجزائر في الحرملك في القرن التاسع عشر (ديلاكروا)، تشتهر اللوحة بإحياءاتها الجنسية؛ وتصور محظيات جزائريات في الحرملك يدخن الحشيش أو الأفيون على الأرجيلة في القرن التاسع عشر، اشتهرت اللوحة بمحتواها الجنسي وسماتها الشرقية. لاحقاً أصبحت اللوحة مصدراً لإلهام الانطباعيين، وسلسلة من ١٥ لوحة رسمهم بيكاسو عام ١٩٥٤م. لقد أبهر الفنان ديلاكروا الضوء الأبيض الذي يميز البيوت، وكذلك الألوان المتألقة في كل مكان. ".. إنني أعيش وكأنني في حلم وأنظر إلى الأشياء بفضل خشية أن تهرب مني"^(٢٢).

لقد شُغف الفنان الغربي بالحياة الشرقية وخاصة ما رآه من نساء، كما فعل الفنان ديلاكروا فرسم لوحته المعروفة بـ "نساء الجزائر". ففي هذه اللوحة، ظهرت معالم إبداعية جديدة تتحكم في العمل الفني، ورغبته في ارتياد معالم الشرق، من عادات وأزياء وطقوس كانت تشغل ذهن الأوروبي لفترة من الزمن. ثم رسم لوحة (عرس شرقي في المغرب) التي نقل فيها تفاصيل ومظاهر الاحتفال الشعبي لزفاف ابنة ثري مغربي وسط المحتفلين بالعرس من عازف الكمان وضارب الدف والمنشد، والنساء اللاتي يبتهجن بالعرس بالرقص والتصفيق، وقد أذهله حركة أجساد النساء وهو ما يُعرف بالرقص الشرقي. يمكن الرجوع إلى لوحة (عرس شرقي في المغرب) (ديلاكروا) لمعرفة التفاصيل التي ركز عليها الفنان الغربي لتجسيد صورة المرأة العربية في بعض المجتمعات.

كان ديلاكروا يعتبر أنه لو لم ير النساء الشرقيات لما بدت لوحاته بهذا الجمال، فمعنى هذا أنه ما كان ليتصور كلياً ماهية الشرق الحقيقي في أكثر عناصره غموضاً، وخفية وسحراً. وحال عودته إلى

(١٨) لم يكن من السهل على أي فنان أوروبي أن يزور بلدان المغرب العربي، لما فيها من حروب طاحنة، إلا إذا كان في صحبة أحد السفراء، المصدر: شاكر نوري، "ديلاكروا يسبر مكامن الأنوثة الشرقية"، البيان، ملاحق، بتاريخ ٩- يوليو- ٢٠١٣م. على الرابط: <https://www.albayan.ae/supplements/ramadan/east-spell/2013-07-09-1.1919272>

(١٩) فرديناند فيكتور أوجين ديلاكروا (٢٦ أبريل ١٧٩٨ - ١٣ أغسطس ١٨٦٣)، رسام فرنسي من رواد المدرسة الرومانسية الفرنسية. له العديد من اللوحات الفنية المحفوظة في متحف اللوفر والمتاحف العالمية الأخرى. من أشهر لوحاته "الحرية تقود الشعب" التي رسمها عام ١٨٣٠ و لوحة "سلطان المغرب" التي رسمها عام ١٨٤٥ و لوحة "نساء جزائريات" التي رسمها عام ١٨٣٠.

(٢٠) بدأ برسم تخطيطات عنها لكي تصبح مادة للوحاته الكبيرة المقبلة التي عرضها في متحف اللوفر الشهير. أبهره الضوء الأبيض الذي يميز البيوت، وكذلك الألوان المتألقة في كل مكان. ".. إنني أعيش وكأنني في حلم وأنظر إلى الأشياء بفضل خشية أن تهرب مني". شاكر نوري، "ديلاكروا يسبر مكامن الأنوثة الشرقية"، البيان، ملاحق، بتاريخ ٩- يوليو- ٢٠١٣م. على الرابط: <https://www.albayan.ae/supplements/ramadan/east-spell/2013-07-09-1.1919272>

(٢١) شاكر نوري، "ديلاكروا يسبر مكامن الأنوثة الشرقية"، البيان.

(٢٢) شاكر نوري، "ديلاكروا يسبر مكامن الأنوثة الشرقية"، البيان.

فرنسا بدأ يرسم لوحاته الشرقية، معتمداً على الكثير من الرسوم التمهيدية والتخطيطات التي تظهر داخل البيوت الشرقية بما فيها من زينة ولوازم. وكذلك تلك التي تصور نساء جالسات أو شبه مستلقيات على السجاجيد! وهكذا بدت جميلات الجزائر، رقة ورهافة وذوقاً، عباقراً وحنناً وجمالاً. وللتعبير عن رقة الجمال بصورة متكاملة وحيوية، عمد ديلاكروا إلى استخدام لعبة الضوء والظل بالشكل المناسب لإظهار مكامن الأنوثة والأناقة معاً. كما يركز الفنان على كرم الضيافة ودور المرأة ومكانتها.

لاحظنا من خلال التحليل السابق أعلاه صورة المرأة العربية في لوحة فنان غربي تختلف عما قيل عن بطولة غالية وشجاعتها، ولكنها صورة أخرى للمرأة العربية، وحتى تكتمل الصورة نُمثل بمثال آخر على صورة للمرأة العربية عند الغرب، وتتمثل في قصص ألف ليلة وليلة التي سحرت الغرب ومنهم إدوارد آين كان مأخوذاً في صورته حول النساء المصريات بكتاب ألف ليلة وليلة، الذي ترجمه إلى الإنجليزية في سنة ١٨٣٩. وفي الحقيقة، آين بنفسه يؤكد "بأن بعض قصص دسائس النساء في ألف ليلة وليلة تقدّم صوراً صادقةً لحوادث عديدة في الحاضرة الحديثة لمصر"^(٢٣). في هذه الصورة أيضاً صورة مختلفة عما قيل عن بسالة غالية وشجاعتها، فيعني هذا أن الغربي كان مشغولاً بأن يوثق صور المرأة العربية بأشكالها المتعددة والمختلفة ويوظفها في مجال أهدافه الخاصة أو العامة.

ونلاحظ كذلك في رحلة هوبر في عام ١٨٧٨م، وأثناء حديثه عن المدن والقرى يذكر عدد المساجد، ويورد شيئاً عن مستوى تعليم الناس، وخاصة وجود مدرسة للبنات مما يثبت أن تعليم البنات لم يكن غريباً على البيئة العربية الإسلامية^(٢٤). فهذا يعني أن الغربي مشغولاً في رصد بعض إيجابيات الشرق وأسباب حضارته، ومنها صورة المرأة العربية التي حظيت بحقوق منها التعليم، ولكن يظل الحق الأكبر محل الإعجاب هو شجاعة غالية البقي، وقيادتها للجيش؛ لذلك نظروا إلى هذه التجربة بأنها الاستثناء أو النموذج أو الإطار.

ونستمر لنرى بعض الصور الأخرى للمرأة العربية، فقد كانت المشاعر الأوروبية حيال المرأة الشرقية لا تستقر على حال، إذ كانت تجول بين الرغبة والشفقة، وكانت تُصور في كثير من الأحيان على أنها ضحية مقهورة ومعذبة، بل ومضطهدة، ففي لوحتي الفرنسي لويس أف كورريارد

(٢٣) انظر: Edward Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians (London: East-West Publications, 1989), p. 298.

(٢٤) المرأة العربية في عيون المستشرقين، هناك العديد من المقالات التي ناقشت موضوع المرأة العربية في عيون المستشرقين وعلى وجه الخصوص في الفن التشكيلي منها على سبيل التمثيل: "الحرملك.. في الفن الاستشراقي"، مجلة العربية، ١١-١-٢٠١٦م.

تظهر مبادلة تجارية بين جندي فرنسي ومواطن جزائري يبيع فتاة مقابل حفنة من الأنعام والبيض ويظهر الفرنسي بصورة المواسي والحنون وقد علت وجه الحساء البريئة نظرة مستكنة حزينة رقيقة ومشيحة عن التحديق المباشر، عيناها الكسيرتان تهربان من المواجهة وتشيان بالحزن العميق والخضوع المستسلم؛ وسجل فنانون آخرون النساء وهن يقمن بالنسيج في ورشات خاصة، أو في بيوتهن، أو وهن يمارسن الزراعة، أو ينقلن الماء، أو يغسلن الملابس، أو وهن في الشوارع والأسواق، أو وهن يمارسن البيع، وغير ذلك من المشاهد التي تقدم المرأة الشرقية، بصورة موضوعية، خالية من البهرجة والمبالغات الخيالية، التي حاول بعض الفنانين الأوروبيين من خلالها، إسقاط أهوائهم ونزعاتهم وأحلامهم، على الرؤية الأحادية الجانب التي نظروا من خلالها إلى الشرق.

وهكذا تتنوع وصف الرحالة للمرأة العربية بحسب أوضاعها الاجتماعية ومكانها الجغرافي وكتابات بوركهات من المراجع المبكرة والتي جاء فيها وصف غالبية البقي بوصفها أميرة عربية تسكن في شبه الجزيرة العربية وتحظى بمكانة اجتماعية تمكنها من إبداء الرأي وتمارس حريات قد لا تمنحها المرأة في مجتمعات أخرى من حمل السلاح وتحميس الجيوش وإلقاء الخطب وتموينهم بما يحتاجونه من مؤنة وسلاح^(٢٥). وهذا يعني اهتمام الرحالة بالأوضاع الاجتماعية للمرأة ويبدو ذلك كما تشير بعض الدراسات على أن منازل النساء من التحرر والخروج للعمل لم يكن يتبع أوضاعهن الاجتماعية والسياسية والدينية فحسب، وإنما يتبع أيضا طبيعة المجال الجغرافي الذي يشغلنه، ويشير إلى حقيقة التباين بين المناطق التي تُشكل عموم المجتمع العربي والإسلامي، وتعطي صورا مختلفة لأنماط الحضور الاجتماعي ولأشكال النشاط الاقتصادي ولطبائع القيم والاعتقادات^(٢٦)، فالمرأة

(٢٥) كتابات بوركهات في جولاته في داخل الجزيرة العربية، تعد من أهم الكتابات والمراجع المبكرة، لا سيما حول الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية وفي الحجاز. حيث قدم في كتاباته وصفاً دقيقاً للحياة الاجتماعية وتعدد الأعراق فيها، مع تنوع العادات وأساليب حياة الناس. ولقد تفوق بوركهات في وصف ذلك، بالإضافة إلى وصف مبهر حول طوبوغرافية المناطق والمدن التي زارها، وهي: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وينبع. والكتاب يسجل تاريخ الحجاز والأراضي المقدسة والمسلمين في بدايات القرن التاسع عشر. وهذه المنطقة لم تكن معروفة لدى الأوروبيين في زمن بوركهات. ولقد كان الوصف في كتابه موسوعياً، والرصد فيه متأنياً. ولقد تضمن رسماً لخرائط تظهر المحتويات والمواقع المكانية والجغرافية. ولقد تميز بوركهات بمهارة كبيرة في تدوين مذكراته، حيث كان دقيق الملاحظة، ويتمتع بالخلفية المعرفية، والفطنة الفلسفية الهادئة القادرة على استيعاب ما يترأى له، ثم نسجه في سياق كلي متماسك. وقد كان عمله -الذي حظي بنجاح سريع- بمنزلة أول وصف سوسيولوجي لحياة قبائل البدو في الجزيرة العربية، من وصف للأرباء، والثروة الحيوانية والعلاقات الاجتماعية البينية، والعادات والتقاليد، وسلوك الناس، وأسلوب حياتهم، وجميعها معلومات متنوعة ومدهشة تعكس صورة للحياة الحجازية في ذلك العصر. عبد العزيز العنزي، "بوركهات.. ترحالاً في مكة والمدينة"، ترحال مجلة السياحة والتراث الوطني في السعودية، على الرابط: <http://www.tirhal.com/details/dt/Detail/ItemID/90/privacypolicy> تاريخ المشاهدة (٢٦ محرم ١٤٤٠ هـ - ٦ أكتوبر ٢٠١٨ م).

(٢٦) محمد بن محمد الخراط، "صورة المرأة في القرن التاسع عشر بين أوروبا والعالم العربي"، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم: الفلسفة والعلوم الإنسانية، فئة مقالات، (١٧ فبراير ٢٠١٨ م). على الرابط: <https://www.mominoun.com/articles>، (٢٦ محرم ١٤٤٠ هـ - ٦ أكتوبر ٢٠١٨ م).

الرفية والجبلية كانت تتمتع بقدر لا بأس به من الحرية والاستقلال الذاتي اقتصاديا واجتماعيا بحكم اضطرارها للعمل في الحقول والجبال من جهة وبسبب ضعف التأثير الرسمي للمؤسسة الدينية في المناطق النائية من جهة ثانية. فقد تحدث لاوست Laoust.H (١٩٠٥-١٩٨٣) عن أعمال الفلاحة في بعض القبائل المغربية في القرن التاسع عشر (منطقة هنتيفة) قائلا: "أشغال المرأة الهنتيفية شاقة، فهي أكثر من أشغال الرجل: جلب الماء، طحن الحبوب، الطبخ، حلب المعز والبقرة، جمع أثاث الدار ومواعينها، جلب الحطب، غسل الصوف، قطف التين والزيتون"^(٢٧) فضلا عن ذلك يورد بعض المؤرخين صورة للمرأة الشعبية التي تتصف بالجرأة والقدرة على الحجاج في الدفاع عن حقها دون أن تتخلى عن شعورها الباطني بدونية منزلتها اعتبارا للتقاليد^(٢٨)، ولكنها تدرك في أعماقها أنها أكثر حرية من سيدات المدن. ففي جنوب المتوسط مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يبدو أن "جميع نساء المدن - عدا بعض الخادومات العجائز - يخفين وجوههن تحت كاغولية حقيقية عندما يدفعن إلى الخروج من "الحريز" تحت ضغط التزامات ما - إن الأمر يتعلق بنساء المدن لا بالقرويات - لأنه فيما مضى كانت القرويات يتجولن بوجه مكشوف دوما"^(٢٩).

لعله تبين لنا من خلال الاستشهادات العديدة أعلاه أن الغرب شغل بصور متعددة عن المرأة العربية من منح حرياتهما في بعض المجتمعات وأيضا صوروها بأنها شجاعة محاولة كسب الاحترام. كما في حالة تصوير غالبية البقمي أو تحكي عن يؤس النساء في الثقافة الإسلامية، ولفت نظرهم حجاب المرأة بطريقتهم الخاصة ونظروا إلى عزلتها النسائية بمثابة السجن، ويبدو لنا أن ما انعكس في بعض الكتابات العربية مؤخرا في القرن العشرين من فكرة الحرملك والقمقم وسجن النساء هو انعكاس لما ورد في التصور الغربي، وهو واقع فرضته أسباب عدة منها الاستعمار واستعباد المرأة والرجل معها فما وقع على الرجل وقع على المرأة.

ولا يبدو التصور الغربي عن المرأة العربية في تلك الفترة التاريخية قائما على الملاحظة والاختلاط الحقيقي بها فقط أو التصور التخيلي من البيئة، ولكن نال الأدب الأسطوري عن المرأة العربية اهتماما في رسم تصور عنها، فصورة المرأة الساحرة والتي تتمتع بالصورة الغرائبية كما في صورة المرأة في ألف ليلة وليلة أسهم في وضع تصور خارق أو ساحر عن نساء الشرق، ومن تلك

(٢٧) محمد بن محمد الخراط، "صورة المرأة في القرن التاسع عشر بين أوروبا والعالم العربي". نقلا عن: أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان ١٨٨٠-١٩١٢) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. الطبعة الثالثة ٢٠١١م، ص ١٩٠.

(٢٨) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المجلد الأول، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م)، ص ٣٧٠.

(٢٩) محمد بن محمد الخراط، "صورة المرأة في القرن التاسع عشر بين أوروبا والعالم العربي". نقلا عن: جرمين تيلبون، الحريم وأبناء العم: تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط، ترجمة عز الدين الخطابي وإدريس كثير، (دار الساقي، ٢٠٠٠م)، ص ١٩٩.

الصور تصور غالبية البقعي على أنها ساحرة أو أسطورة استثنائية، فظهرت الدراسات التي تحكي عن هذه الغرائبية^(٣٠)، وانتقلت إلى الدراسات التالية.

ونختّم هذا المحور، باستنتاج نتيجة مؤداها بأن صورة المرأة العربية لدى الغرب في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تختلف بحسب أوضاعها الاجتماعية والسياسية والمنطقة الجغرافية، وهذا الصورة ارتبطت بالمشاهدة الحقيقية والواقعية عبر كتابات الرحالة الغرب، والرسامين وهي نتيجة تخالف صورة المرأة العربية في الصحف الغربية حالياً وهي تربط واقع المرأة بشكل كبير بالصورة الذهنية التي تشكلت عنها عبر مختلف وسائل الإعلام، والتي كرست ثقافة الجسد، والأدوار الثانوية لها في الحياة، كما أنها تُلغي وجودها كإنسانة في كثير من المواد الإعلامية والإعلانية، فتصبح مجرد شيء يستخدم ويستهلك، وعلى الرغم من تزايد عدد النساء العاملات في المجال الإعلامي إلا أن الصورة الذهنية التي ابتدأت منذ القرن السابق لا زالت هي المسيطرة على واقع المرأة^(٣١).

فهناك دراسة لياسمين أسامة عبد المنعم عن صورة المرأة العربية في الصحافة الغربية تشير فيها إلى اختلاف الصورة النمطية عن المرأة العربية في الصحف الغربية الأمريكية والبريطانية بعد ثورات الربيع العربي، حيث كانت تصور الحجاب عقبة في طريق تمكين المرأة وتحررها، وتصور الاتجاه المعادي للنقاب وتعدّه علامة لاضطهاد المرأة، وتصورها الضحية المضطهدة التابعة للرجل، ولكن بعد ثورات الربيع العربي سجلت تحسناً ملحوظاً وقل النقد الموجه، وتسجل إعجاباً بشجاعته^(٣٢). وإن كان هذا الرأي مخالفاً لتوجه الباحثة إلا أنه يمثل دراسات في حقل الإعلام وتحولات الصورة النمطية عن المرأة العربية في الإعلام لها علاقة بالحجاب واستثمار المرأة بوصفها سلعة إعلامية في بعض الأحيان.

(30) Exoticism in 19th-century literature was primarily understood through geographic remoteness and Europe's (scholarly and political) interests in foreign nations. In Britain, the stories of One Thousand and One Nights – or The Arabian Nights, as the work has also become known after the first anonymous English translation of. Kuehn, J, Exoticism in 19th-century literature, **Publisher** The Journal's web site is located at The British Library 2015. <http://www.bl.uk/romantics-and-victorians>.

(٣١) الصورة النمطية للمرأة في الإعلام: التأثير والنتيجة، منتدى المرأة الخليجية، على الرابط: <http://www.gwf-online.org/developments/1271/>

(٣٢) ياسمين أسامة عبد المنعم، صورة المرأة العربية في الصحافة الأمريكية والبريطانية خلال الفترة ٢٠١٢-٢٠١٣م، للحصول على درجة الماجستير بقسم الصحافة بجامعة أكتوبر للعلوم الحديثة، (٢٠١٥م).

المحور الثاني: تحديد موضوعات المرأة العربية وقضاياها في الخطاب الغربي.

بعد أن عرضنا الآراء المتعددة في المحور السابق عن التصور الغربي للمرأة العربية، لعلنا استنتجنا تعدد اهتمام الرحالة الغربيين بموضوعات المرأة العربية في كتبهم فتحدثوا عن كل من:

- تأثير الفكر الديني.
- نفوذ المرأة العربية.
- الدور السياسي وعلاقته بغياب الزوج.
- إدارة الأملاك.
- التبرج لنساء القرى والحجاب لنساء المدن.
- ارتفاع مستوى الأمية.
- الجانب الأسطوري في كتابات الرحالة.

ولكن هناك قضية مهمة وهي تصور بعض الكتب الغربية مدى تأثير المرأة العربية على القضايا السياسية ونفوذها، بل وإسهامها في حروب غيرت خريطة العالم العربي حينها، مثل دور غالبية البقمي في إحدى المعارك المهمة في تأريخ الدولة السعودية الأولى، وتأثيرها على هزيمة العثمانيين في شبه الجزيرة العربية، ومثل ذلك تأثير السيدة نفيسة على نابليون، نسجت الكاتبة الفرنسية فرنسواز برتوليه تفاصيل حياة وموت نفيسة البيضاء في قصة عنوانها: "عاشت في الظل.. ماتت في النل" (٣٣). كما ينقل الكاتب الفرنسي لأكروا عن المذكرات التي أملاها نابليون في منفاه في جزيرة سانت هيلانة، وتروي حكايات الرحالة أن نفيسة ذهبت إلى منزل نابليون، وطلبت مقابلته، فاستقبلها بكل احترام، ولعل نابليون أراد بهذه المجاملة أن يتخذ من السيدة نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها ليقبل الصلح مع الفرنسيين ويتوقف عن مقاومتهم في الصعيد (٣٤).

(٣٣) عنوان كتاب فرنسواز برتوليه Bertullet Françoise.

(٣٤) إعداد حنان أبو الضياء، "الحملة الفرنسية على مصر بعيون الإبداع"، مغرس، على الرابط: <https://www.masress.com/alwafd/281065> نشر في الوفد بتاريخ ٢٠١٢/١٠/١٨م، تاريخ المشاهدة، (٢٠١٨/٢/٨م).

المحور الثالث: رصد دوافع الآخر من خلال وجهة نظر متخصصة.

آراء ودراسات المستشرقين حول المرأة العربية تحمّس لها اللورد كرومر، والذي شغل لفترة طويلة منصب المندوب السامي البريطاني في مصر، بل واعتبره البعض أحد المستشرقين وكتب دراسة عن مصر ضمن فيها آراءه عن الإسلام تحت عنوان "مصر الحديثة"، وكذلك تبنى دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة؛ وكانت الصورة السائدة عن المرأة في الشرق أنها دوماً وراء ستار، فهي لا تُرى، لا تتحدث أو تناقش، كأنها غير موجودة في مسار الحياة اليومي، ورأي المستشرقون خاصة في اللوحات التشكيلية المرأة في سوق النخاسة والعبيد، على عكس اللوحات التي صورت المرأة الغربية كسيدة مجتمع تحيك أو تقرأ أو تربي الأجيال أو ترعى الغنم^(٣٥).

يرى عبد العزيز عبد الغني إبراهيم أن بعد طرد المسلمين من الأندلس أرسلت الدول الأوروبية تباعاً رحالة إلى الشرق لاستكشاف دروبه التجارية وتقصي أحواله السياسية والاجتماعية والتعرف على الإسلام، وذلك تمهيداً لحركة الاستعمار. عمل بعض هؤلاء الرحالة على بعث الفكر القومي في شبه الجزيرة العربية ليعارضوا به الرابطة الإسلامية، كما عمل بعضهم على بث التنصير السياسي والثقافة الغربية تسهيلاً للاستثمارات والامتيازات النفطية بعدئذ.

وصنف هؤلاء الرحالة الذين تخرّج معظمهم في مدارس كهنوتية أو عسكرية كتباً تناولوا فيها أخبار رحلاتهم بشكل يمازج بين الحقيقة والخيال، مصورين السكان شعباً متوحشاً فاسداً جنسياً، بدائياً لا يخلو من نبل همجي. ويميل إبراهيم إلى أن أدب الرحلة الغربية قام على أسس صليبية استعمارية عنصرية عنيت بتوجيه الرأي العام الغربي لتحقيق أهداف وغايات بعيدة عن مصالح المنطقة وشعوبها^(٣٦).

وفي بداية القرن التاسع عشر، بدأت أعداد الأوروبيين الذين يسافرون إلى الشرق الأوسط تتزايد بحثاً عن موضوعات ومناظر جديدة وآفاق غير مكتشفة يستلهمونها في لوحات جميلة، لقيت نجاحاً كبيراً في أشهر المعارض الدولية؛ وكان سحر نساء الشرق هو ما عبّر عنه أحد الفنانين المستشرقين بقوله "يا له من جمال، يا له من سحر أسر، يا لها من ملابس، خشيت أن يعتقد دليلي-الترجمان- أنه أصابني مس من الجنون. الحقيقة أنني كنت مذهولاً من كل ما هو مدهش وجديد أمامي، ومقتنعا أنني وجدت نفسي على أرض بكر، وبأن هؤلاء الناس لم يسبق أن رسمهم أحد"، لتحتل المرأة الشرقية

(٣٥) إعداد: أحمد صوان- سارة الأمين، إشراف سامح القاسم، "المرأة العربية في عيون مستشرفي القرن الـ ١٩"، البوابة نيوز، ثقافة، لأربعاء ٩- مارس- ٢٠١٦م، على الرابط:

<https://www.albawabhnews.com/1814186>

(٣٦) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية ١٥٠٠- ١٨٨٠ (٣ أجزاء)، (الناشر: دار الساقى، ٢٠١٣م).

حيز اهتمام المستشرقين؛ وكتبت جودي مابرو judy mabro مؤلفة كتاب تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط مُشيّرة إلى أن أوروبا "قد سحرت بالحجاب والحريم ونفرت منهما في آن واحد، فقد عمل هذا الرمز على الحيلولة بين المراقب الأوروبي ورؤية النساء أو الاتصال بهن مما أيقظ لديه مشاعر الإحباط والسلوك العدواني"، ودأبت اللوحات الاستشراقية على تصوير النساء وهن لا يفعلن شيئاً، أو يقمن بأي عمل، على عكس الغربيات في لوحات الفن الغربي، فلم يظهرن منهنمكات في تطريز أو طبخ أو حياكة أو صلاة أو أي شيء^(٣٧).

ويرى معظم العرب أن دوافع الرحالة الغرب كلها واحدة وإن تعدد الوصف، بأنهم جواسيس، وكان حينها يشك محمد علي باشا بأن بوركهات جاسوس^(٣٨)، كما يغلب عليهم الأسلوب الساخر فيما يخص الطقوس الدينية. ويعد فكرة السفر إلى الشرق مغامرة تستحق التسجيل والكتابة والوصف والرسم والتوثيق. كان هناك إغراء لا يقاوم في حسابات مثل هذه الرحلات.

ونختم برأي مايكل سمبسون^(٣٩) حيث يرى أن الرحالة في القرن التاسع عشر جلبوا معهم إمكانات كبيرة لسوء الفهم الدولي. جذب هذا النوع العديد من الكتب غير الجديرة بالثقة. كان البعض منهم مغني غزل محترفين يفتخرون بالمغامرات التي حصلوا فيها مع أجانب غربيين أو خطرين؛ وكان آخرون سائحين متحيزين بعيون شغف بالمشاهد أو العادات الخارجية التي قد تصدم مواطنهم في أوطانهم المقيمين في الوطن. وتلقى العالم العربي على وجه الخصوص ما يبدو أنه أكثر من مجرد نصيبه العادل من التقارير غير الدقيقة من قبل الزوار الغربيين.

ويضيف إن مثل معظم الرحالة في الشرق الأوسط اليوم، كان الرحالة في أوائل القرن التاسع عشر عادةً على اتصال محدود للغاية بالمجتمعات التي زاروها وكتبوها. وملابسهم الأوروبية تبدو غريبة وغير جذابة، وتميزهم عن الشرق الأوسطيين أثناء انتقالهم بين عدة أماكن جغرافية. ونادراً ما

(٣٧) تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط؛ بقلم: جودي مابرو، ترجمة مجلة الآداب الأجنبية، (رقم العدد ١١١)، تاريخ الإصدار: ١ يوليو ٢٠٠٢م. ص ٢٤-٤٧. يشكل هذا البحث مقدمة كتاب Judy Mabro, ed., Veiled Half-Truths: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women (London: I. B. Tauris, 1991). Pp. 285. وقدم مراجعات لهذا الكتاب منها: المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد ٢٥، العدد ٣، أغسطس ١٩٩٣، ص ٤٩٩-٥٠١. International Journal of Middle East Studies, Volume 25, Issue 3, August 1993, pp. 499-501.

(٣٨) سلمان كاسد، "الرحالة الغربيون بين الخفاء والتجلي راقفوا قوافل الحجاج فأصبحت كتاباتهم متعددة ودوافعهم واحدة"، **الاتحاد، الملحق الثقافي**، ٣ سبتمبر ٢٠١٢م، على السربط:

<https://www.alittihad.ae/article/67006/2018>

(٣٩) مايكل سيمبسون، الرحالة المستشرقون، ظهر هذا المقال على الصفحات من ١٦ إلى ١٨ من طبعة يوليو/ أغسطس ١٩٨٩ المطبوعة من عالم أرامكو السعودية.

كتبه مايكل سيمبسون، ترجمة الباحثة نقلا عن النص الأصلي بالإنجليزية:

michael Simpson, Orientalist Travelers, This article appeared on pages 16-18 of the July/August 1989 print edition of Saudi Aramco World.

كانوا يعيشون مع العائلات المحلية، والتي من شأنها أن تكون واحدة من أفضل الطرق لفهم البيئة المحيطة بهم. ونتيجة لذلك، فإن ما رأوه وسمعوه عن الشرق الأوسط شمل جرعة كبيرة من تلك الأساطير والقصص الطويلة التي كان المرشدون المحليون يدركون أنها قد تثير سحر الأوروبيين، مع قصص حقيقية أو خيالية عن نساء جميلات وحكام قاسين.

وبالنسبة لمعظم الأوروبيين قبل ١٥٠ عامًا، كانت الرحلة الحافلة البسيطة إلى مدينة مجاورة بمثابة مغامرة. وكانت فكرة السفر إلى أقاصي الكرة الأرضية، وزيارة عوالم مجهولة وغريبة، تفوق التصور تقريبًا، وبالتالي، كان هناك إغراء لا يقاوم في روايات مثل هذه الرحلات، مما يضاعف من ضيق تجربتهم، ونتيجة لذلك، غالبًا ما يتمسك الرحالة بالقوالب النمطية التي كانوا يحملونها في أمتعتهم، فإن العودة والتعميم لمواطنيهم حول "الشرق الأوسط" لم يكن من المرجح أن يكونوا أكثر دقة من الأجانب الذين يقدمون تأكيدات شاملة.

من خلال ماقدمناه، لعل معظم الكتابات تشير إلى أن أغراض الغرب من الصورة الذهنية التي رسمت عن العرب أهدافها مرتبطة بمفهوم الاستشراق، والبعثات التبشيرية، والليالي العربية، وصورة الشرق في القرن التاسع عشر الأدبية مقارنة بالظروف المعيشية للنساء الغربيات مع الفقراء والمتخلفين.

الخاتمة:

ناقشت هذه الدراسة بعض التصورات الغربية عن المرأة العربية في القرنين (١٨-١٩) الميلادي بغية التوصل إلى صورة رسمها الخطاب الغربي عن المرأة العربية في تلك الفترة، فتبين أن هناك ثلاث صور، وهي على النحو الآتي:

- الصورة الأولى: صورة المرأة القوية الفارسة الخارقة للمألوف وهي صورة تخالف النمط السائد والمألوف.

- الصورة الثانية: صورة المرأة العربية الملهمة للفنان الغربي.

- الصورة الثالثة: تتراوح بين السلبية والإيجابية بحسب المنطقة الجغرافية، وغالبًا الرحالة متورطين بالتجسس، وغرضهم وصف الشرق من الخارج ولم يكونوا على علاقة قوية من الداخل.

وعلى كل حال، سواء أكانت المرأة العربية موضوعًا للفن الغربي في فترة تاريخية مهمة من تاريخ الفن الغربي، أو كانت المرأة العربية ضمن اهتمام أدبيات الغرب وإدخالها ضمن مادة سردية غنية في القصص والحكايات الغربية، فهي حالة من الاستقرار تعكس اهتمام الغرب بأمور المرأة العربية مما يعطي تصورا عن المرأة العربية في فترة تاريخية يظن فيها أن المرأة لم تكن مشاركة في أحداث التاريخ والفن، وهذا يعقبه مجموعة من الدراسات التي أدت إلى تطور البحث والتقيب في

استقراء النصوص حتى بها تحصل الغايات وترتبط بحسب الأهداف؛ لذلك كان هدفي إبراز الدور التاريخي والسياسي للمرأة العربية في شبه الجزيرة والتي ينظر إليها من مفهوم معاصر حالي، وهي قصة غالبية البقمي بعد أن حُكِيت في التاريخ من قبل وجهات نظر متعددة غربية وعربية، فكان لابد أن ننظر إليها من زاوية وطنية ورؤية وطن طموح.

إن إدخال بنية القصة (قصة غالبية البقمي) في المناهج الدراسية السعودية مؤشر يدفع الطالبة إلى الشجاعة والكرم ويتسرب إليه الجانب القيمي من خلال بطولة النساء العربيات ويرتفع قيمة المرأة التي فضلها الله ثم مجتمعها لمثال حي من بيئته، ومن وجهة نظري ومن خلال تدريسي في المرحلة الجامعية والتمثيل بمثل قصة غالبية البقمي يحصل تحقيق الجانب التربوي والنفعي بدليل تأثر طالباتي بالصورة الذهنية التي رسمتها لهن عن غالبية لتصمم إحداهن صورة فارسة تشبه صورة غالبية البقمي في الخيال التاريخي، وهذا الطرح يدفعه إلى البحث في كتب الرحلة لإمكانية إيجاد مادة غنية للبحث وينتقل الباحث إلى استقراء أرحب وأعمق.

وأهم نتيجة يمكن الخروج منها هي أن المرأة العربية في شبه الجزيرة العربية قوية شجاعة كانت قادرة على أن تحدث التغيير التاريخي في خريطة العالم العربي، وقامت غالبية البقمي بهذا التغيير مع من كان معها، وسواء كانت كتب الرحالة منصفة أو غير منصفة ففي بعض جوانبها تكمن بعض الحقائق.